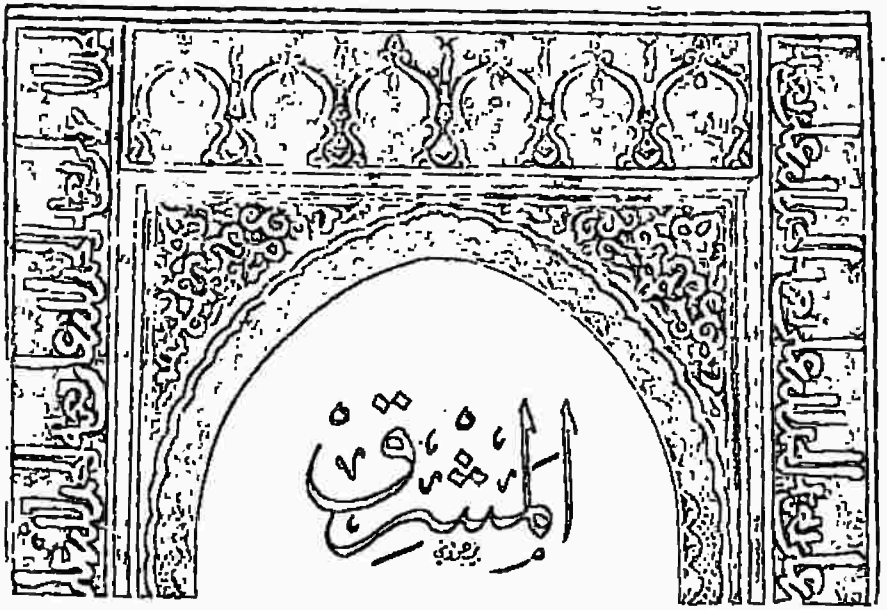

آذار ١٩٢٩

المنطق الحديث

بحث انتقادي فلسفي

للاب شرل ايلا اليسوعي

يزعم البعض ان النهضة العلمية الحاضرة في بلاد الناطقين بالضاد تقتضي ادخال الفاظ غريبة في اللغة ، لانّ القديمة منهـا لا تقوى دائماً على التعبير عن الافكار الجديدة والاكتشافات الحديثة.

وقد يصدق الزعم فيما يتعلق بالعلوم الطبيعية . امّا الفلسفية فنخالها بغنًى عن الاعجمي الـدخيل ، اللهمّ اذا ما ضربنا صفحاً عن بعض فروعها كالعلم النفساني الاختباري والاجتماعي الخ.

وممّا يؤيّد بنوع حتّى رأينا هذا كتاب « علم المنطق الحديث »[1] لمؤلّفه

---

١) علم المنطق الحديث – الجزء الاول – مطبعة دار الكتب المصرية ، ومكتبة أمين هندية ، بالقاهرة.

السيد محمد حسنين عبد الرازق ، استاذ التربية والمنطق بمدرسة المعلمين العليا في القاهرة.

طالعنا الجزء الاوّل من هـذا الكتاب فالفيناه يفي بما وعدَ بهِ الاستاذ الفاضل في العنوان والمقدمة . فانه قد ضمّ فيهِ الى « المنطق الاستدلالي » القديم (Logique déductive) القسم الحـديث المعروف بالمنطق الاستنباطي (Logique inductive) ، الذي لهُ شأنه العظيم في الاكتشافات العصرية . وهناك ايضاً « موضوعات جديدة ذات اتصال بالمنطق القديم ... لم يكتب فيهـا مناطقة العرب » منها مثلاً الجدول الوارد في ص ٨٠ لبيـان اقسام العلوم.

ولم تخلُ جِدّة المواضيع دون عربية القالب. بل من مزايا المؤلّف الوضوح والفصاحة في الالفاظ ، والمتانة في التركيب ، والسهولـة في الاسلوب ، اللهمّ فيما يغلب.

وحبّذا لو ضاهى القالبَ مضمونُه طيبةً بجميع اطرافه.

فانّ المؤلف اعزّه الله ، قد اقتبس كثيراً من الفلاسفة العصريين. ولا لوم عليه بهذا ، لولا ما حدا بهِ تعلّقُهُ المفرط ببعض المذاهب العصرية (modernistes) الى اضاليل خطرة ، والى الحطّ من شأن الاقـدمين ولاسيما مفكري القرون الوسطى ، كأنّ روجر باكون ، والمؤلف من المعجبين بهِ ، ليس منها ؛ او كأنها لم تُنجب نوابغ من امثال توما الاكويني ، ويوناونتورا ، وسكوت ، وغيرهم من لا يزال جهابذة الفلاسفة حتى في عصرنا هذا يستنيرون بنورهم ، ولا ينكر فضلهم الّا من اعمى الغرض بصيرته.

فحسب هؤلاء فخراً انهم ، وإنْ لم يُبرّزوا في ميدان العلوم الطبيعية الّا على قدر ما بلغت اليهِ معرفتهم من الاكتشافات في عصرهم ، فقـد احتفظوا « بالحكمة الخالدة » (Philosophia perennis) وحفظوها للخلف ، بـل دعموها بحجج راهنـة جازمة ووسّعوا نطاق نتائجها ولاسيما في علم مـا وراء الطبيعة.

وما الحكمة الخالدة هذه الّا مجموعة حقائق جوهرية اكيدة صريحة ، منها مبدأ التعليل (principe de causalité) وروحانية النفس وخلودها ، ووجود الاله القائم بذاته مميّزًا عن مخلوقاته ، وحقيقة الثواب والعقاب في الآخرة . وهي الفلسفة التي طالما اعتصمت بها العقول السليمة السامية وما حادَ عنها احدٌ الّا شذَّ عن محجّة الصواب ، بل مَرَق من الدين ، اذ لا قوام بدونها لدين أيًّا كان .

بل الطريقة الاستنباطية عينها ، التي هي من اهمّ اسباب اعجاب السيد محمّد حسنين بالمحدثين ، هل كان لها قوام في نظر العقل السليم ، لو لم يتعمّق في درس اصولها الفلسفية الذين اقتفوا آثار أرسطو والاكويني ، فعلّلوها وابانوا انّ مرجعها النهائي الى القياس الاستدلاليّ ؟

فيا ليت صاحب « المنطق الحديث » اقتبس من معلّمي القرون الوسطى قيراطاً من اربعة وعشرين ممّا اخذ عن العصريين . فلو فعل لسلم كتابه من اضاليل عديدة ، نقتصر ، خشيةً من البحث المُملّ ، على ذكر ما يلي منها :

١ً في ص ١٢ ان حاسّة البصر « مهيّأةٌ لادراك المبصَرات كالنور والظلمة واجسام الاشياء واشكالها واوضاعها وابعادها وحركتها وسكونها »

والصحيح ان امتداد الاجسام والشكل والوضع والبعد والحركة انما هي محسوسات مشتركة بين اللمس والبصر فلا يتسنى لهذا بدون ذاك ان يبلغ اليها الّا بعد ما يدعوه الفلاسفة حتّى العصريّون تربية الحواسّ (éducation des sens) بل بعد هذه التربية ذاتها لا يمكن العقل دائمًا ان يبني حكمًا شافيًا ، في ماهيّة كذا محسوسات ، على مدلولات البصر وحده .

امّا الظلمة فلا نرى كيف يُحصيها جناب الاستاذ بين المبصَرات وهي نقيض النور بل هي لا شيء ، وكيف يؤثّر العدم في الحاسّة ؟

٢ً وقال ايضًا (ص ٢٩) « انّ الانسان من بين سائر الموجودات هو الذي في قدرته وحده ، بفضل قوّته الفكريّة ، ان يعلم كل ما يمكن علمه بهذه الموجودات . »

فجاءت لفظة « وحده » تنفي وجود القوّة الفكريّة الالهية بل تنقض ما

سبقَ المؤلف وصرّح به ملياً في الصفحة ذاتها اذ قال : « كل شيء لا يتعلّق به العلم الانساني او الالهي لا يكون موجوداً » ، ما لم يؤوّله الانسان بان يُجعل شيئاً واحداً هوَ والله حسب مذهب الحلول الممقوت.

وهب ان كلمة « الموجودات » في الفقرة الاولى حُصِر معناها ، على غير ما هو ظاهر بالذهن ، في الموجودات المخلوقة ، فبايّ حقّ يُنفى اذ ذاك وجود القوّة الفكرية الملائكية ؟ وان كان الفيلسوف لا يتوفق ، بعقله المجرّد وبمعزل عن الوحي ، الى معرفة الارواح المحضة ، فهل يُسوّغ له ذلك انكار وجودها بتاتاً ، وان ضمناً.

٣ قد حدّد المؤلف العلّة المادّية بقوله : هي ما « لا يتحقّق المعلول بدونه » كذا بدون ما قيد. افلا تكون ، بناء على هذا الحدّ ، كل المعلولات ماديّة على الاطلاق فيتعذّر على الخالق ان يُخرج من العدم روحاً مستقلّة عن المادّة في كيانها ؟ واذ ذاك افلا يكون صاحب الحدّ المذكور جنح الى مذهب الماديين ؟ أم يزعم ان خلق الكائنات يقتضي علّة ماديّة سابقة مما يؤدّي به الى مذهب القائلين بازلية المادّة ؟

ثمّ علامَ يُهمل تماماً ذكر العلّة الصورية في تقسيم العلل فيحصرها في ثلاث فقط وهي الفاعلية والمادية والغائية . فهل نسيَ انهُ حدّدَ العلّة الفاعلية قائلاً : « هي ما بهِ تكون صورة المعلول » وهل تختلف صورة المعلول عن علّته الصورية ؟

٤ في الصفحة ٤٨ حدّان لاسمَي الذات والمعنى يؤولان الى نتائج فادحة. قال: « اسم الذات (le terme concret) هو كل اسم يمكن ادراك مفهومه باحدى الحواسّ . . . واسم المعنى (le terme abstrait) هو كل اسم يدل على مفهوم لا يمكن ادراكه بأحدى الحواسّ »

تُرى هل الله والنفس البشرية من مدركات الحواسّ ام العقل ؟ فان كان الاول ، فقد افضى بنا الامر الى كفر الماديين . وان كان الثاني ، اضحى الله والنفس اسمَي معنًى وبذا غدونا على قاب قوسين من مذهب الحلول ، لانّ الله عندئذٍ يكون بمنزلة صورة حلّت في ما يدلّ عليهِ اسم معنى كما يحلّ البياض

مثلاً في الابيض والشهامة في الشهم . تعالى الله عن ان يكون صورةً مجرَّدةً . نعم انَّ عقلنا الضعيف لا يستطيع الى ادراكه سبيلاً ، الَّا بتجريد الفكر الذي يمثِّلهُ من القرائن المحسوسة ، التي تصحب صورته في المخيلة . بيد انهُ عزَّ وجل ، في حدِّ ذاته ، جوهر معيَّن قائم بنفسه . وكذا النفس البشرية ، وسائر الارواح .

ومما لا يترك ادنى مجال للشك في انحياز صاحب « المنطق الحديث » الى مزاعم الماديين أنهُ وضع الفرق الجوهري بين الانسان والحيوان في ميزة ماديَّة محضة . قال (ص ١٧٦) سامحه الله : « انَّ قابلية التعلم مبنيَّة على صفة لازمة لنوع واحد من انواع الحيوان ، وهو الانسان ، بها تتحقَّق ذاتيته . وهذه الصفة هي زيادة نسبة مخه الى جسمه على نسبة مخ اي حيوان آخر الى جسمه » واما العقل الروحي وحرية الاختيار ، زينة الانسان وشرفه وما يُعلي شأنه فوق كل المخلوقات المحسوسة على وجه البسيطة ، فكاني بالسيد محمَّد حسنين عبد الرازق نبذهما نبذ النواة ما بين خرافات القرون الوسطى .

أوَليس من غرائب الخرافات ان يُحصر في زيادة نسبة المخ على الجسم ، قوام القوة البشرية الفكرية ، التي اكتشفت مصل التيفوئيد والجدري ، ومكنت الناس من محادثة بعضهم بعضاً على مسافة اميال كما لو كانوا في مكان واحد ؟ بل حبَّذا ما يدعوه المحدثون المتطرِّفون خرافات القرون الوسطى ! وحبَّذا حكمتها الخالدة التي تقي العقل من الضلال !